



لم يكن الموت هو ما ينتظر ذاك المقدم الطيار المنشق، لقد كان أفظع عذاب عرفته البشرية كلها، في قسم التحقق في مطار المزة العسكري المخابرات الجوية، يضحك الموت حين كنا نراه أمنيةً ما على وجه الأرض أجمل منها، ورغم أن المساعد بحصق في الخبزة الصغيرة وصفعني عشر مرات قبل أن يعطيني إياها إلا أنني التهمتها كما لو أنها أطيب ما ذقته في حياتي، مضى يومان وأنا مشبوح في غرفة الموت والأصفاد كانت قد دخلت في لحم يدي عندما أدخلوا ذاك الرجل الأربعيني بالأمس فجراً عارياً من كل شيء، علقوه بالسقف من رجليه على غير عادتهم، كان يرتعد بشدة، لقد أدرك بحكم أنه ضابط ما الذي سيفعلونه به، بعد قليل دخل اثنان منهم يحملان كبلين للدبابات وتبعهما واحد منهم يحمل قطعة من سلك معدني شائك، من النوع الذي نراه على الحدود بين الدول، أمسكه أحدهم من شعره وقال له :

– شو سيادة المقدم بحياتك شفتوا له الله هلق بدك تشوفوا شخصي.

كانت عيونه تبكي دون أن يحركَ ملامح وجهه يبكي بكميراء لم أر مثله في كل لحظات اللقاء مع الموت، كنت عاجزاً لدرجة أنني لم أستطع حتى البكاء معه، أمسك المساعد السلك الشائك وبدأ يلفه حول كبل الدبابة حتى غطى كامل الكبل، فصار شكل الكبل مع الأسلال الشائكة كوجه الموت الزؤام.

وكلت قد سمعت عن آلة لحام الحديد ورأيت أناساً أحرقوهم بماكينة لحام الحديد، لكنني لم أكن قد رأيتها أبداً قبل تلك الليلة، دخل أحدهم وأدخل معه آلة اللحام ، وصلها بالكهرباء، بدأت أرتجف، وكانت حركتي تزيد ألمي لأن الأصفاد كانت تحتك بلحمن يديّ، كبلوا له يديه للخلف،

كانت أول ضربة هوت على جسده العاري بالكبل الذي كانوا قد وضعوا عليه السلك الشائك فصرخ صوتاً كأن الأرض قد صرخت معه، و في كل ضربة كانت تقع على ظهره كانت الأشواك الحديدية تنغرس بجسده فيشدّها المساعد المسلح مقاتلاً بها كل ما تحمله معها من لحمه الطاهر.

وعندما كان الكبل ذو الأسلال الشائكة يصادف معدته كانت الأشواك الحديدية تغوص بلحمه، لدرجة أن المساعد كان

يشدّها مرتين لتخرج وو لتأخذ معها قطعاً من جسده الذين كان كالوطن يعطيهم دمه وأجزاءه وهم يقطعونه بأيديهم.

اقترب المساعد الثاني وطعنه بآلة لحام الحديد فثقب له كتفه كله فبدأ يتقيأ دماً، وكان مشهد الدم كان يغريهم فزادوا عليه بالكبال على كل أنحاء جسده وهو يصرخ يا الله يا الله يا الله يا الله ساعدني يارب، ولازلت أسمع صوته حتى هذه اللحظة.

اقترب الممسنح بآلة اللحام وطعنه بكتفه الثاني بقضيب اللحام فثقب له كتفه الآخر، فأغمي عليه وصمت تماماً، ذهب أحدهم وعاد ومعه عصا الكهرباء، كان المسؤول عن التعذيب هو المساعد أول نصر أسبير قال لهم يلا صحوه بدننا نلعن ر.. اليوم ، ما بيطلع من هون غير عالقبر، بدي صوتوا يصل عند الله.

ـ بدي جربها على هادا سيدى .. كنت أقرب معتقل له .. نظر في عيني وقال:

ـ إذا بتراجع وبتوسخ الأرض بعدمك هون فهمت ولا كلب لسا بروح وبرجع بشوفك بخلقتي ما بقى تموت ولا حيوان.

ـ كنت أنتفاض وأنا معلق وأرجوه ألا يفعل، لم أترك شيئاً لم أتوسل به له لكن القدر أبى إلا أن أواجه مصيري في ذاك اليوم، ضحك واقترب مني وصعقني بها في ركبتي، أردت أن أصرخ لكن شيئاً ما شلَّ فمي، شعرت كأن أحداً ما أدخل سكيناً في نقي عظامي، وكان قلبي قد انفجر وتجمدت عيناي ولم أعد أرى بهما، كانت الثوانى تمر كأنها سنوات، والألم جاء أقسى من الجوع وأعمق من الطعن وأبعد بكثير من قدرة البكاء، يا وطننا يحكمه الغرباء.

شهقت ولم أعد أقوى على التنفس، فبدأ يصفعني على وجهي، حتى عدت وشهقت من جديد، سمعته يقول لي: "طلع فيني هون ولاك طلع فيني هون"، لم أكن أراه حتى أنظر إليه كنت ألتفت إلى الجهة الخطأ فيصح لي جهة رأسى بالكبل الذي أمسكه بيده الأخرى، سألني شو اسمك ولاك عرضاً قلت له: أنا الرقم 1646 سيدى، قال: "يعرف بس شو اسمك ولاك احكي"

قلت له وائل سيدى وائل الزهراوى سيدى، فقال أيوه وهي لساك متذكر اسمك، أنا أصلاً كل الدارسين حقوق بحن والله لأنعن ر.. لسا.. ثم أمسك الكبل الذي يقطر من دم المقدم ومسحه برأسى يريد أن ينظفه وقال لي : أصلًا كلن دمك مثل بعض دم وسخ.

وكم كان ما فعله عظيمًا وكم كان فعلاً جميلاً من ممسنح قبيح لا يعي كل ما أشعر به أبداً، وكم فرحت أني أحمل بعضاً من دم ذاك الضابط الشهيد، ف قطرات الدم تلك تساويهم جميعاً عندي، وفي عمق ذاك الألم كنت أتساءل عما يشعر به وربيع لحم جسده قد وقع تحت رأسه، سكبوا على المقدم وعاءً من الماء، وما إن بدأ يصحو حتى صعقه الممسنح بعصا الكهرباء في ظهره الذي لم يبق فيه جلد يغطي عموده الفقري، وزادوا عليه بكل الدبابات، وبدأوا يضربونه على رأسه والكبل الملفوف بالأسلام الشائك اقتلع نصف فروة جمجمته، يا كل بقع الدم اصري، يا أيتها الجدران تكلمي أخبرني كل هذا العالم مازا جرى هناك وماذا فعلوا بنا، يا وطننا سقيتك من دمي وأعطيتك من لحمي وتقاسموك كالغنيمة، يا هنافاتنا التي كنت أرى فيها الحرية والإباء أين اختفيت أين .. أين؟

وما لن أنساه حتى ما بعد الموت، كيف حاول في آخر لحظات حياته أن يثنى جسده ويصل للأصفاد التي كان معلقاً بها كانت عيناه قد عميتاً ، وورمتا لدرجة لا توصف ومع ذاك يريد أن ينجو، بصدق نصف أضراسه تحت رأسه، يحاول أن يقاوم الموت القادر لا محالة، ولكن هيهات هيهات، ولات حين مناص.

ثقبوا له فخذنه وإنغرس قضيب اللحام في عظامه، وأنقلوه بالكبل ذي السلك الشائك في أماكن الثقوب و على رأسه حتى

غابت كل ملامحه كما يغيب الوطن خلف أحقاب الدهر، وكما يغيب الضوء عندما ينتصر الظلام، وكما كنت أستسلم للموت وأدعوه أن يأخذني من هناك ويأتي، ورأيته كيف كان يُمطر الأرض دمًا كأنه ينتقم من ظلمهم بنزفه، وشعرت أن الكون كله يُمطر دمًا، كان صوت تساقط دمه يشبه صوت ارتطام أكdas الجثث حين كانوا يرمونها فوق بعضها، جثث أبناء الوطن.

المقدم الطيار 20/31 هذا رقمه واسمه وتاريخه وبطولاته وأطفاله وحياته، صرخ بكل قوته ثم أسلم الروح هناك، هناك حين كنا نحب بعضاً لدرجة أننا ندفن معاً في مقابر جماعية، بعد ساعه كان دمه قد ملأ الغرفة، فكوا أصفاده فوق على الأرض جثة لا يتحرك، وسحبوه من رجليه ليكون رقماً بين مئات الأرقام التي هي جبين الوطن وعزته وشرفه ورائحته.

في صباح اليوم التالي أُنزلوني، لم أكن أشعر بيدي ولا أستطيع الحكم بكتفي مطلقاً، لبست سروالي الداخلي بعد سبعة عشر يوماً قضيتها عارياً، أدخلوني للجماعية الرابعة زنزانة المرضى، عندما دخلت لغرفة المرضى كان عدنا 98 شاباً سورياً، بعد عشرة أيام أصبحنا 62

البقية قدموا أرواحهم لكم ورحلوا، تركوا لكم كل أحلامهم وصراخاتهم ورسائلهم ودماءهم ونظراتهم قبل الموت، وهبوكم أغلى ما لديهم واستشهدوا تحت التعذيب، لعل الأمل فيكم لا يخيب.

ومن كان صاحب حقل فلا يتسلو حفنة طحين، وبعد كل تلك الأرواح كيف يمكن أن تخيل أن هناك سورياً حراً يمكن أن يسامون على الدم أو يقايسن على العذاب، وبعد أن كنت هناك مالذي يمكن أن يبقى من حياتي سوى أن أخلص لأولئك الأحرار في أغلالهم، سأرتدي ملائمكم يا رفاق العذاب، سلاماً عليكم أيها الشهداء الأحياء، سلاماً أيها السوريون الشرفاء.

بعد سنتين من اعتقاله أرسل النظام هويته المدنية إلى أهله، وهذا ما يعني أنه توفي، كان لديه زوجة لا تزال شابة ولديه منها طفل صغير لم يعاشه طويلاً، فتحت عائلة المعتقل خيمة عزاء ثلاثة أيام بعد استلامهم هوية ابنهم، وقرروا بعدها تزويج امرأته لأخيه حتى لا يخسروا حفيدهم أو يربى عند ناس آخرين أو يُظلم، حملت زوجة المعتقل من أخيه "زوجها الجديد" وقبل أن تضع مولودها أطلق النظام العاهر سراح المعتقل الذي كان قد أوهم أهله بأنه مات !!

أي عذاب غادره المعتقل وأي عذاب عاد إليه !! زوجته لم تعد زوجته بل زوجة أخيه، وتحمل طفلاً منه، لم يحتمل البقاء بين أهله أكثر من أيام وهرج دمشق بصمت إلى أوروبا بروح مدمرة ونفس مقتولة.

لكل معتقل حكاية لو سقطت على جبل لصدىعه، نعرف القليل من هذه القصص ونجهل معظمها، ولكن هناك من يعيش ألمها وعذابها، نظام بشار الأسد تفتن في تعذيب السوريين، وما زال له مؤيدون في سوريا !!

المصدر: شبكة شام الإخبارية

المصادر: